مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

العدد الرابع عشر
1997

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1427 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1997 أفرنجي

السليقة اللغوية عند العرب

د. علي محمد النوري
كلية اللغات ـ جامعة الفاتح

حاول بعض الباحثين المحدَثين أن يُقرِّبوا لنا معنى السليقة اللغوية، فإذا هي عندهم شيء كالذي أسماهُ ابن خَلدون ـ رحمه الله ـ بـ«المَلَكَةِ»، تُسْتَجَادُ بالمِرَانِ والدُّربَةِ، وتَضْعُفُ بالإهمال والتَّرْكِ.

وإذا هي ليست أمراً غامضاً أو سحرِيّاً، موقُوفاً على جنسِ العرب وبيئتهم، وإنما هي مرحلة مُتَمَيِّزة من مراحل التمكُّنِ اللغوي لا يَبْلُغُها إلا ذَوُو الاستعداد الفِطري الفائِق.

ولكنَّ السليقة اللغوية عند العرب، تَظَلُّ، في نظري ـ رغم محاولات التيسير والتقريب ـ شيئاً آخر غير الذي قيل.

فهل السليقة هي المَلَكةُ حقاً؟ وهل الإتقان اللغويُّ، والمِرَان والدُّرْبَةُ

والمهارةُ، وما إليها، يمكن أن تجعل من الفرد سليقيّاً؟

ثم هل يمكن أن تُفْصَل السليقةُ عن جنس العرب وبيئتهم؟ وهل الجنس والبيئة من حيث هما، كافيان أن يجعلا كلَّ منتسب سليقيّاً؟

تلك الاستفهاماتُ قضايا أثارَهَا في نفسي ٱشتغالي بهذه المسألة. وقد رجوتُ أن أكون وجدتُ لها في هذا البحث إجاباتٍ مقنعةً وحُلُولاً مرضيةً، دون تَعَجُّلٍ أو ٱعتساف.

الأُسُّ اللغويُّ:

نقل أبو منصور الأزهريُّ ـ رحمه الله ـ في «تهذيبه» ما يلي:

ـ «وقال بعضُ العرب: سَلَقَهُ بالسوطِ ومَلَقَهُ: أي نزع جِلْدَهُ. وقال الليث: ركبتُ دابّةً فسلقتني: أي سَحَجَتْ[1] باطن فخذي[2]...

ـ وروى عمرو عن أبيه أنه قال: السلائق: الشرائحُ ما بين الجَنْبَيْنِ، الواحدة: سليقة.

ـ ويقال سَلقت اللحم عن العظم: إذا ٱلتحيته عنه. ومنه قيل للذئبة[3]: سِلْقَةٌ.

ـ وقال الله جل وعزَّ: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾[4].

---

(1) «قال الليث: سَحَجْتُ رأسي بالمشط سحجاً، وهو تسريح لَيِّنٌ على فروة الرأس. قال: والسَّحْجُ: أن يصيبَ الشيءُ الشَّيْءَ فيسحجُه: أي يقشر منه شيئاً قليلاً...

وٱنسحج جلده من شيء مَرَّ بِهِ: إذا تقشر الجلد الأعلى» (تهذيب اللغة (سحج) 4/ 120).

(2) في الأصل: «جلدي» مكان «باطن فخذي». وهذه عن مخطوطة التهذيب (م)، كما رمز لها المحقق. وهي عندي أوفقُ لأنَّ باطن الفخذين والأليتين يحصل بهما ذلك من ركوب الدواب. (وانظر أساس البلاغة (سلق): 305).

(3) «قال الأصمعي: الذئبة: فَرْجَة ما بيْنَ دفتَيْ الرَّحْل والسرج والغبيط، أيّ ذلك كان». (تهذيب اللغة (ذأب) 15/ 22).

(4) سورة الأحزاب، الآية: 19.

قال الفراء: معناهُ عَضُّوكم بألسنةٍ. يقول: آذوكم بالكلام في الأمنِ[5] بألسنة سليطة ذَربةٍ...

وقال الليث: سلقته باللسان: أي أسمعته ما كرِهَ، فأكثَرْتُ. ولسان مِسْلَق: حديد ذَلْقٌ.

ـ وعن أبي زيد قال: يقال: فلان يقرأ بالسليقة أي بالفصاحة، من قوله: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ﴾.

ـ وقال غيره: فلان يقرأ **بالسليقةِ أي يقرأ بطبعه الذي نشأ عليه ولغتِه.**

ـ وروى أبو عبيد عن أبي زيد: إنه لَلَئِيمُ الطبيعة والسليقة.

ـ وقال أبو عبيد في السليقة مثله.

قال: ومنه قيل: فلان يقرأ بالسليقيَّة أي **بطبيعته، ليس بتعليم.**

قال أبو منصور الأزهري: المعنى أن القراءة مأثورة لا يجوز تَعدّيها، فإذا **قرأ البدويُّ بطبعه ولغته** ولم يتَّبع سنَّة القراءة قيل: هو **يقرأ بالسليقة.**

ـ ثعلب عن ٱبن الأعرابي: قال: السليقة: المَحَجَّةُ الظاهرة، والسليقة طبع الرجل.

قال: والسليقُ: الواسع من الطرقات. والسَّلْقُ: أثر الدَّبْر إذا برىء وٱبيَضَّ.

ـ وقال غيره: يقال لأثر الأنساع في بطن البعير يَنْحَصُّ عنه الوبرُ: سلائقُ، **شُبِّهت بسلائق الطرقات.**

ـ وقال الليث: السليقيُّ من الكلام ما لا يُتَعاهَدُ إعرابُه، وهو في ذلك فصيح بليغ في السمع، **عثور في النحو.**

---

(5) في الأصل «الأمر» بالراء بدل «الأمن» بالنون. وهذه عن مخطوطة التهذيب (جـ)، كما رمز إليها المحقق. وهي عندي أوفق لأن الآية وكلام الفراء عليها. (وانظر معاني القرآن 2/ 339).

ـ وقال غيره: السليقيُّ من الكلام: ما تكلَّم به البدويُّ بطبعه ولغته، وإن كان غيره من الكلام آثرَ وأحسن.

قال: والسليقة مخرج النسع في دَفّ البعير، وأنشد:

تَـبْـرُقُ فـي دَفَّـهَـا سَـلائِـقُـهَـا[6]

قال: وأشتُق ذلك من قولك: سلقتُ شيئاً بالماء الحار، وهو أن يذهب الوبرُ ويبقى أثرُه؛ فلمَّا أحرقته الحِبال شبّه بذلك، فسُميت سلائق.

ـ وقال أبو عبيد: السلائق بالسين: ما سُلِق من البقول.

ـ وقد يقال لما يلي اللهوات من الفم أسالق.

وقال جندل:

إنـي امْـرُؤٌ أحـسـنُ غَـمـزَ الـفـائـقْ
بـيـن الـلَّـهَـا الـوَالِـجِ والأسـالـقْ

ـ وقال الأصمعي: السليق: الشجر الذي أحرقه حَرٌّ أو برد»[7].

ونقل الجوهري ـ رحمه الله ـ في «صحاحه»:

ـ «وسَلَقَ: لغة في صَلَق أي صَاحَ.

ـ والمسلاق: الخطيب البليغ، وهو من شدة صوته وكلامه، وكذلك السَّلاَّق.

قال الأعشى:

فِيهِمُ الحَزمُ والسماحة والنجـ ـدَةُ فيهم، والخاطب السَّلاَّقُ

ويُروى: «المِسْلاَقُ».

يقال: خطيب مِسْقع مِسْلَقٌ.

ـ وسلقتُ المَزادة: أي دهنتها.

---

(6) صدر بيت للطرماح، في ديوانه: 117. وعجزه:

مِـن بَـيْـن فَـذْوٍ تـوأمٍ جُـدَدُه

(عن هامش التحقيق: 8/ 404).

(7) انظر تهذيب اللغة (سلق) 8/ 403 ـ 406.

قال الشاعر:

كـأنّـهـمـا مـزادتـا مُـتَـعَـجّـل فَـرِيّـان لَـمّـا يُـسْـلـقـا بـدِهَـانِ

ـ والسُّلاَّقُ: بثر يخرج على أصل اللسانِ.

ويقال: تَقَشُّرٌ في أُصول الأسنانِ.

ـ والسِّلْقُ، بالكسر: الذئبُ، والأنثى: سِلْقة[8].

ورُبّما قيل للمرأة السليطة: سِلْقَةٌ.

والسِّلقُ: النبتُ الذي يُؤكل.

ـ والسليقةُ: أثر النسع في جنب البعير.

ـ والسليقةُ: الطبيعةُ. يقال: فلان يتكلَّمُ بالسليقة، أي بطبعِهِ، لا عن تعلُّم، وهي منسوبة بالفصاحة.

ـ وتَسَلَّق الجدارَ: أي تسَوَّرَه.

ـ والسليقُ: ما تحاتَّ من الشجر، ومنه قول الراجز:

«تسْمَعُ منها في السليق الأشهبِ»[9]

ومما تقدم يمكن أن نحصُرَ أهمَّ الدلالات اللغوية لرسم (سـ ـ لـ ـ ق) فيما يلي:

أ ـ ما يتصل بنزع شيء من شيء:

كنزع الجلد الخارجي، ونزع ما عليه من شَعَرٍ أو وَبَرٍ ونحوهما، بفعل الأنساعِ والحِبال وما إليها. وكنزع اللحم عن العظم.

---

(8) كذا! وانظر: الجمهرة لابن دريد 3/ 41 ـ 43 واللسان لابن منظور 10/ 161 ـ 162.

(9) وبعده:

مَـعْـمَـعَـةً مـثـلَ الـضِّـرَام الـمُـلْـهَـبِ

الصحاح (سلق) 4/ 1497 ـ 1498.

ب ـ ما يتصل بأثر شيء في شيء:

كأثر السابلة على الأرض بحيث يصير ذلك طريقاً ظاهرة واسعة. وكأثر الركوب أو الحِمْل على متون الدوابّ إذا دَبرَت.

وكأثر الأنساع والحبال ونحوها في بطون الإبل إذا طال شَدُّها عليها.

وكأثر الماء الحار في المطبوخ، وأثر الحر والبرد في الشجر والنبات، وأثر الدهن في المدهون...

ولا يفوتنا في هذا الصدد ملاحظة ما يأتي:

1 ـ أنَّ مفهوم الأثر قد تطوّر ـ شأن الألفاظ اللغوية عموماً ـ من الحقيقة إلى المجاز أو نقول: من المُحَسّ إلى المعقول. ومنه ـ فيما نحن بصدده ـ قوله تعالى: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾.

فالإيذاء باللسان السليط ضرب من الأثر المعنوي. وقديماً قِيل: جُرحُ اللسانِ أنْكَى من جرحِ السِّنَانِ.

وإذا كان للأخير جرحٌ في الجسم يسيل دماً، فإنَّ للأوّلِ جرحاً في النفس يسيل ألَماً.

2 ـ أنَّ السليقة بمعنى الطريق الظاهرة الواسعة أسبقُ في الاستعمال العربي ـ كما تبيَّنتُ ـ منها بمعنى أثر الأنساع والحبال في بطون الإبل.

يُسْتَنْتَجُ ذلك من قول غير أبن الأعرابي الذي أورده الأزهري ـ رحمه الله ـ حيث قال:

«وقال غيره: يقال لأثر الأنساع في بطن البعير ينحَصُّ عنه الوبر: سَلائق، شُبِّهت بسلائق الطرقات».

فتسمية آثار الأنساع بالسلائق إنما جاءت عن طريق تشبيهها بسلائق الطرقات.

والمشبه به أسبق وجوداً ـ على الأقل في ذهن المستعمِل ـ من المشبَّه.

3 ـ أنَّ أسبقية ٱستعمال «السلائق» عند العرب يتنازعها معنيان:

ـ **أحدهما**: ما تقدَّم من معنى الطرقات.

ـ **والآخر**: سَلْقُ شيء بالماء الحارِّ لطبخه، ونزع ما عليه من قشرة أو وَبَرٍ أو شَعَرٍ ونحو ذلك. فقد جاء فيما نقله الأزهريُّ ـ رحمه الله ـ عن غير الليث: «قال: وٱشْتُقَّ ذلك[10] من قولك: سلقتُ شيئاً بالماء الحارِّ، وهو أن يذهبَ الوبرُ ويَبقى أثرُهُ. فلمَّا أحرقته الحِبال شُبِّهَ بذلك، فسُمِّيَت سلائقَ».

فتسمية آثار الحِبال في دَفِّ البعير بالسلائق إنما جاءت عن طريق تشبيهها بما سلقه الماء الحارُّ.

والمشبَّه به ـ كما سلف ـ أسبق وجوداً ـ على الأقل في ذهن المتكلِّم ـ من المشبه.

فالمشبهُ به عند اللغوي الأوَّل[11] الطرقاتُ الظاهرةُ الواسعةُ، سَمَّتْها العربُ سلائقَ لأن السابلة نزعت بترددها ما على الأرض من نبات أو حجارة.

والمشبَّهُ به عند اللغويِّ الآخرِ[12] المطبوخُ بالماء الحار، سَمَّتْه العربُ مسلوقاً لأن حرارة الماء نزعت ما عليه من قشرة أو وبر أو شعر.

ولكنْ أيُّ الأمرَيْن أسبقُ في ٱستعمال العربِ حقيقة؟

كأنَّ الأرجحَ عندي أن يكون المعنى الأول أسبقَ. وذلك أن الإنسان، في وجوده على هذه الأرض، مَشَى في مناكبها وسَلك لنفسه في أرجائها مَسَالِكَ وطرقاتٍ قبل أن يكتشف النارَ ويُنضجَ عليها طعامه.

---

(10) يريد مخرج النسع في دفّ البعير.

(11) يُراد ما مضى في الملاحظة السابقة.

(12) يُراد ما في هذه الملاحظة.

جـ ـ ما يتصل بالطبع:

سواء أكان طبعاً لغوياً: كالفصاحة والبلاغة واللهجة بحيث ينشأ عليها المرءُ، لا يطاوعه لسانُه إذا أُريد على سواها، مما لم يألفه.

أم كان طبعاً أخلاقياً: كالشهامة، واللؤم، والكرَم والجود... وما إلى ذلك، على نحو ما جاء عن أبي زيد من قوله: «إنه للَئيم الطبيعة والسليقة».

د ـ ما يتصل بمخارج الأصوات:

على نحو ما جاء في تسميتهم لما يلي اللهوات من الفم بالأسالق.

وهو مخرج لم يذكره علماءُ الأصوات القُدَماءُ والمحدثون ـ فيما علمتُ ـ وهم مُعْذِرُون في ذلك، لأن الأسالق أو ما وراء اللهاة، تسمية تشريحية أكثر منها صوتية؛ بحيث لا نعلم بالتحديد أيَّ صوت من الأصوات اللغوية يخرج من هذا الحيّز.

تلك هي إذاً أُمَّهَاتُ الدلالات التي يدور في فَلَكها رسم (سـ ـ لـ ـ ق). كما تبيّنتُها من خلال ما تقدَّم عَرْضه مما جاء به مُعْجَمَان عمدتان في العربية هما: «تهذيب» الأزهري، و«صِحَاح» الجوهري. غير أنني أُرَى أنَّ جِمَاعَ ذلك كلِّه يُمْكن أن يُحْصَرُ في معنى الأثرِ سواء أكان حقيقةً أم مجازاً. فهو الأصْلُ الذي تَأْرِزُ إليه كلُّ الفروع.

حَدُّ السَّلِيقةِ: أو بين السليقة والمَلَكَةِ:

فالسليقة اللغوية أثَرٌ بَيِّنٌ لتلك الطبيعة أو السجية التي جعلت من البَدَوِيّ ذا قدرة كلامية فائقة، ومهارة جَلِيَّةٍ، يرتقي بهما في درجات البلاغة والفصاحة والبيان. ويَنْأَى عن دركات اللَّحْنِ والخطأ والعَيّ، من غير **تعلم مقصود** أو **دُرْبة مُرَادة**.

وعلى هذا، فالسليقة ليست معنىً غيبياً ولا أمراً سحرياً يُعْجَزُ عن تفسيره.

فقد أثبتت الحقائقُ العلمية أن الإنسان يُخلق مزوَّداً بقدرة على الكلام تتمثَّلُ في مراكز في المُخِّ للذاكرة اللغوية وللعمليات العقلية العليا، وللقراءة والكتابة، ولحركيات النطق[13].

فتلك القدرة هي أساس السليقة، أو نقول: إن السليقة اللغوية أثر لتلك القدرة التي أودعها الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الإنسان.

وإنما توجّهها البيئةُ توجيهاً حسناً أو سَيِّئاً.

ذلك أنَّ الإنسان إذا ٱستوعب قَدْراً صالحاً من لغة بيئته، فإنه يصير بِوُسْعِه أن يؤلِّف جُمَلاً وعباراتٍ لم يكن قد سمعها ذاتَها من قبلُ.

ولعل هذا هو أدنى درجات السليقة. إذْ تختلف درجاتها بٱختلاف درجات ما كَمَنَ وراءَها من تلك القدرة الفِطرية.

وكأنَّ السليقة بهذا المعنى تقترب مما أسماه العَلاَّمةُ ٱبن خَلدون بـ«المَلَكَةِ اللغويةِ»، التي فصَّلَ الكلام عنها في غير موضع من «مُقَدِّمته». وقال في أحدها:

«ٱعلَمْ أنَّ اللغاتِ كلَّها مَلَكَاتٌ، شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان، للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها، بحسب تمام الملكة أو نقصانها... والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال، لأن الفعل يقع أوَّلاً، وتعود منه للذاتِ صفة، ثم تتكرر فتكون حَالاً، ومعنى الحال أنه صفة غير راسخةٍ، ثم يزيد التكرار فتكون مَلكةً أي صفةً راسخةً»[14].

والظاهر أنه ٱستفيد في «المعجم الوسيط» من كلام ٱبن خلدون السالف عن «المَلَكة» فحُدِّدت بأنها صفة راسخة في النفس، أو ٱستعداد عقلي خاص لتناول أعمال معيّنة بحذق ومهارة، مثل الملكة العددية، والملكة اللغوية[15].

---

(13) انظر المعنى اللغوي د/ محمد حسن حسن جبل، ص98 ـ 103.

(14) المقدمة: ص648.

(15) انظر المعجم الوسيط: (ملك).

ولكن هل السليقة هي الملكة حَقّاً؟ وهل هما لفظان لمعنىً واحدٍ؟

ولو أوجزت ههنا ما سيأتي تفصيله لقلتُ: إنَّ الفرق بين الملكة والسليقة ـ بالمفهوم الذي قدَّمته ـ أنَّ الأولى قد تُرَبَّى بالتعلُّمِ المقصود وغير المقصود جميعاً.

أما الأخرى فلا تكون إلا بالتعلُّمِ غير المقصود[16].

وكأنَّ الملكة اكتسابٌ والسليقة هبةٌ. لذلك كانت السليقة آصَلَ وأقوى من الملكة.

فليس كلُّ ذي ملكة سَليقيّاً، كما أنه ليس كُلُّ سَليقيٍّ ذا مَلَكةٍ.

السليقة بين القدماء والمحدثين:

«يرى اللغويون العربُ القدماءُ ـ فيما استخلصه الدكتور رمضان عبد التواب ـ أنَّ السليقة ـ مرتبطة بالجنس والوراثة، أي أنَّهُ لا يَتصوَّرُ أن يُسيطر على اللغة العربية غير العربي، كما أنه لا يمكن أن يتقنها اتقانَ العربي لها، وهم بذلك كأنما قد تَصوَّرُوا أنَّ هناك أمراً سحرياً، هو سِرُّ السليقة، ذلك هو الجنسُ؛ فكأن الأمهاتِ يرضعن السليقةَ في ألبانهن، وكأنَّ تلك السليقة تَتَّصِلُ اتصالاً وثيقاً برمالهم وآثارهم وأطلالهم ودمنهم»[17].

ويبدو لي أنَّ في هذا الاستخلاص، وفي عرضِه بهذه الصورة بعضَ نَظرٍ:

أ ـ أنَّ اللغويين القدماء إذا تحدثوا عن السليقة عند العرب، ونوَّهوا بشأنها، وأُعجِبُوا بأصحابها إعجاباً مُفْرِطاً أحياناً؛ لم يكونوا صادرين في كل ذلك عن أنَّ السليقة هي ـ كما فهمها المحدثون ـ بمعنى المَلَكَةِ، أي مهارة لغوية مكتسبة، كسائر المهاراتِ، يُسَيْطَرُ بها على العربيةِ، وتُسْتَجاد بالمِران والدُّرْبة.

---

(16) انظر الاحتجاج بالشعر في اللغة. د/ محمد حسن حسن جبل ص15.

(17) فصول في فقه العربية: ص95.

ب ـ أن كلمة «ملكة»، في حد ذاتها، كلمة مُوَلَّدَة، بحيث لا نجدها في استعمالاتِ اللغويين القدماء.

وكأنَّ أقدم تعريف لها هو ما جاء عن ٱبن خلدون ـ رحمه الله ـ وضُمِّنَ فحواه «المعجم الوسيط» ـ كما تَقَدَّمَ ـ أما السليقة فهي لفظة معروفة عند العرب، وٱستعملها اللغويون القدماءُ ـ كما مضى عَرْضُه ـ وفسَّروها بالطبيعة اللغوية التي ينشأ عليها البدويُّ ويعتادُها لسانُه.

وتبيَّنَّا أنها أثرٌ لتلك الطبيعة في لسان البدويّ دون أن يكون تَلَقَّنَ قواعد الكلام ومعاييرَ الفصاحة والبلاغة والبيان على شيخٍ أو مُعَلِّمٍ.

جـ ـ أن ٱرتباط السليقة بالجنس العربي، وبالبيئة العربية أمر سليم جدّاً. إذ لا يعقل أن تكون اللغة، أية لغة، من حيث هي منطوق مُعَبِّرٌ عن معانٍ تصوّرَها المتكلِّمُ، وترجمت عن أحاسيسه، وسجَّلت علاقاتِه، ووصفت محيطه ببعدَيْه: المكاني والزماني، لا يعقل أن تكون منفصلة عن جنسه وبيئته.

فالسليقة، على هذا الأساس، تتصل ٱتصالاً وثيقاً فِعْلاً برمال العرب وآثارهم وأطلالهم وخيامهم ودمنهم.

وهل حيِيَ هذه الحياةَ المعيَّنَةَ، في تلك البيئة المحددة، وعَبَّر عنها بلغة ٱسمها العربية، غيرُ الجنس العربي؟

د ـ أنَّ اللغويين العرب القدماء لم يصفوا كلَّ العربِ، من حيث هم عربٌ، بالسليقة.

وإنما قصروا ذلك الوصفَ على بعض الأعراب من أهل البادية، عندما بُهِرُوا بما تَلَقَّوْه عنهم من لغة لم يكونوا قد سمعوا مثلَها في المدن والحواضر.

ولذلك وقف اللغويون العربُ القدماءُ حياتَهم على جمع اللغة «السليقية» من أهل البادية، لأنها لغة لم تنشأ عن تعلُّمٍ مقصود، أو تقعيدٍ مُلَقَّنٍ، وإنما عن سليقة سليمة وطبيعة مستقيمة.

ولا نكاد نجد شواهدَ، في أمهات الأصول اللغوية[18] لغير أهل البداوة؛ بل إنَّ من اللغويين من كان يأنف أحياناً أن يأخذ عن بعض القبائل التي جاورت المدنَ والحواضر، خوفاً من أن يكون فسادُ السليقة قد انتقلت إليهم عَدْواهُ.

كما أننا لم نجد اللغويين القدماءَ قد وَصَفُوا بالسليقة غير أعراب البادية؛ وإن كان هناك أجناس شَتَّى قد تعلَّمُوا العربيةَ، وأتقنوها أيَّما اتْقَانٍ، وتفننوا في طرائقها وغاصوا في بواطنها، وخاضوا لُجَجَها.

وما ذلك إلا لأنَّ اللغويين القدماء كانوا يعلمون تمامَ العِلْم أنَّ السليقة ليست صنعةً تُتْقَنُ ولا خبرة تُسْتَجادُ ولا ملكةً تُربَّى بالمِرانِ والدُّرْبَةِ؛ وإنما هي هبة طبيعية قبل هذه المراحل كُلِّها، بل تفوقها أحياناً ـ كما سيأتي ـ حيث نجد بعض الأعراب يسخرون من حلقات الدرس النحوي.

وذلك لأنهم لَمَسُوا بإدراكهم الفطري أنَّ اللغةَ ليست قواعد وقوانين وأحكاماً يحفظها المَرْءُ في مجالس الدرس والتلقين؛ وإنما هي حياة تسري في كيانه، يرتضعها من طبيعته وبيئته، دون مُعَلِّم مخصوص أو درسٍ مقصود.

وهذا أمر دقيق جدّاً، يكاد يصعبُ تصوُّرُه اليومَ، لأننا لفساد سلائقنا اللغوية، وتلاشي بيئاتنا الكلامية، أصبحنا لا نستطيع أن نتصوَّرَ أعرابياً من أهل البادية، لم يجلس بَيْنَ يدي مُعَلِّم قطُّ، يَتكلَّم بطلاقة وبيان، عربيةً فصيحةً، بليغةً، لا لحن فيها ولا خطأ، يَتَلَقَّفُهَا مِن فِيهِ ليدوّنها في دفاترِهِ، عُلَماءُ أجلاءُ كعيسى بن عمر الثقفي (149هـ) وأبي عمرو بن العلاء (154هـ) وأبي الخطاب الأخفش الأكبر (157هـ) والخليل بن أحمد الفراهيدي (174هـ) والكسائي (189هـ) وأبي عبيدة معمر بن المثنى (213هـ) وأبي زيد الأنصاري (215هـ) والأصمعي (216هـ)... وغيرهم كثير.

---

(18) عدا علم البلاغة، فإنه علمٌ مستحدث، وقد أُجيز فيه الاستشهاد بالمُوَلَّد، لأن النظر فيه إلى المعاني من حيث هي، لا إلى الألفاظ.

أجل، هؤلاء العلماء الأجلاء يصفون أولئك الأعراب، أهلَ الخيام والصحراء، والإبل والشاء، والبطش والوفاء والبذل والسخاء... يصفونهم بأنهم أهل سليقة لغوية. ولم يرد عن أحد من هؤلاء العلماء، على علمهم، أنه وُصِف بها!

أليس في ذلك دليل على أنَّ السليقة ليست كما فهمها المحدثون؛ وأنَّ معناها أدقُّ بكثير مما ذهبوا إليه من معنى الملكة؛ وأنها شيء فطري مُنِحَهُ بعضُ الأعراب، وآمتازوا به دون غيرهم.

وبناءً عليه، فآرتباط السليقة بالجنس العربي على الإطلاق هكذا ـ وإن كان على جهة السخرية ـ أمرٌ غالٍ؛ ونسبته إلى فَهْمِ اللغويين العرب القدماء، بتلك الصورة نسبة لا تكاد تسلم من الاعتساف.

وظاهر أنَّ الأستاذ الكبير رمضان عبد التواب قد أخذ متعجِّلاً بفهم المحدثين للسليقة، وإلاَّ لكان حَرِيّاً به ـ وهو من هو ـ أن يدقِّق النظر ويستجلي كوامِنَ الأمر.

قال مستعرضاً رأي الدكتور إبراهيم أنيس ـ رحمه الله ـ ليقابل به رأي اللغويين العرب القدماء:

«أما السليقة في رأي المحدثين فهي: «لا تعدو أن تكون مرحلة من مراحل **إتقان اللغة**، عندما لا يكاد يشعر المتكلِّمُ بخصائص كلامه، من حيث الأصوات وأبنية الألفاظ، وتراكيب الجمل، فهو يؤدّي الكلام بصورة آلية، دون أن يكون له أي اختيار في هذه النواحي؛ بل تصدر منه دون تكلُّفٍ أو تعمُّدٍ، وإنَّمَا على حَسَبِ ما سمع في صغره، ممن حوله من الكبار، وعلى نفس المنهج الذي يسلكونه، فالمرءُ يبدأ حياته مقلِّداً لِلُغَةِ أبويْه، وتصادفه عقبات وعثرات في هذا التقليد، ويمرُّ بمراحل كثيرة قبل أن يصل إلى تلك التي تُسَمَّى بمرحلة السليقة.

أي أن آكتساب اللغة يبدأ بالتقليد وكثرة المِرَان، ولا يقال للطفل في أثناء تعلُّمِه لغةَ أهله، وقبل أن يسيطر عليها: إنه يتكلَّمُها بالسليقة، فلا وراثة في

السليقة اللغوية، وإنما الأمر كلُّه رهن بالاكتساب والتقليد والمران، وعلى حَسَبِ ما تشكِّله البيئةُ. فاللغة مِلْك من يتعلَّمُها، لا أثر فيها للوراثة أو الجنس؛ فالطفل الذي يولد من أبوَيْنِ مصريَيْنِ، ثم ينشأ بعيداً عنهما، في بيئة إنكليزية، يَشُبُّ ويَنْمُو كالإنكليز تماماً من حيث اللغة... وليس في السليقة اللغوية لدى المحدثين شيء غامضٌ أو أمر سحريٌّ، كما كان علماء العربية القدماءُ يظنون، حين رَبَطُوا بينها وبين البداوة حيناً، أو الجنس العربي حيناً آخر، إذ لم يتصوَّروا أن الأجنبيَّ عن العربية يمكن أن يتقنها كأبناء العرب، مهما بذل من جهد أو صرف من زَمَنٍ»[19].

وهذا كلام قد بُنِيَ ورُصِّصَ على أساس أن السليقة ـ كما تقدَّم ـ مَلَكَةٌ تحصل بالتقليد والمِرَان والاكتساب، وأنها تُتْقَن وتُسْتَجَاد كأي مهارة من المهارات الأخرى. وقد بَيَّنَّا ـ فيما نوقش آنفاً ـ أن السليقةَ غير ذلك. وأنَّ العربيَّ وغير العربيّ جميعاً، إذا تَعَلَّمَا اللغة في حلقات الدرس، ومجالس العِلم، وأتقناها إتقاناً جيّداً، وسَيْطَرَا عليها ـ كما في عبارة الرجلَيْن ـ سيطرةً محكمةً، لا يوصفان كلاهما بالسليقة.

ولم يرد عن أحد من العلماء ـ فيما أعلمُ ـ أنه وَصَف كلام الماهر في اللغة عن طريق التعلُّم والاكتساب، بالكلام السليقي.

وإنَّما نشأ هذا الاختلاط بين المَلَكة والسليقة في أذهاننا، نحن المحدثين، عن قصورِ تصوّرِنا أن تُمْتَلَكَ اللغة بغير التَعَلُّم والاكتساب والمِرَان. لذلك جاء كلام الأستاذَيْنِ الكبيرَيْنِ: أنيس وعبد التواب، على نَسَقٍ واحد، من أن السَّليقة هي المَلَكةُ. وحَمَّلا اللغويينَ القدماءَ تَبِعَة هذا التحديد. وهم منه بُرَآء.

وإذا السليقة عند المحدثين بيِّنَةٌ جليَّةٌ، أما عند القدماء فشيء غامضٌ، وأمر سحريٌّ.

---

(19) مستقبل اللغة العربية، د/إبراهيم أنيس ص13 ـ 14 (نقلاً عن «فصول في فقه اللغة» ص95 ـ 96).

ونشأ عن ذلك أن وقع الأستاذانِ في كثير من التناقضات ـ كما أسلفنا ـ.

قال الدكتور رمضان مُعَلِّلاً جَمْعَ اللغويين القدماء للغة العربية عن أصناف مختلفةٍ من العرب:

«ولأنَّ القدماء قد ذهبوا إلى أن اللغة العربية تجري في دماء العرب، فقد أخذوا اللغة عن العرب، حتى عن الأطفال والمجانين والنساء»[20].

ولئن آستقى هذه المعلومةَ من كتاب «المزهر» للسيوطي ـ رحمه الله[21] ـ؛ ولئن كانت تلك المعلومة في حد ذاتها حقيقةً لا مِرَاء فيها، فإنَّ توجيهها على ذلكم الأساس الذي ذهب إليه الأستاذ الكبير لا يكاد يستقيم. وتوضيحه كما يلي:

أ ـ أنَّ هناك فرقاً بين جمع اللغة من أصناف المتكلِّمين بها لغاية تدوينها وحفظها من التلاشي والضياع، وبين الحكم عليها أو على أولئك المتكلمين بها.

فالجمع وصف، والحكمُ معيارٌ. ومنهج الجمع، من حيث هو، يقتضي الوصفية دون المعيارية.

ب ـ أنَّ اللغويين القدماء لم يشترطُوا على أنفسهم في جمعهم اللغة العربية، أنْ لا يأخذوها إلا عَمَّنْ وُصفوا بالسليقة من العرب.

وقد بيَّنَّا ـ فيما سبق ـ أنَّ السليقةَ لم يُوصف بها العربُ من حيث هم عربٌ آعتداداً بالجنس، وإنَّما وُصِفَ بها بعض الأعراب من أهل البادية، ممن بُهِرَ اللغويون القدماء بفصاحتهم وبلاغتهم.

ولو أنَّ اللغويين القدماء آلتزموا بهذا الشرط لَمَا وصلنا مما وصلنا من العربية إلا نزر قليل، لا تقُوم به معاجمُ ولا تُبْنى عليه أصول لغوية.

---

(20) فصول في فقه اللغة ص96.

(21) انظر المزهر 1/ 140.

جـ ـ أنَّ هذه الأصناف المُتَعَجَّبَ من أخذ اللغويين القدماء العربيةَ عنهم، أطفالاً كانوا أم مجانينَ أم نساءً، هي أصناف لا تضير المنهج الوصفي ـ كما قدَّمنا ـ وهو منهج الجمع.

وإذا كان منطوقُ هذه الأصناف لغةً عربيةً، فُصْحى، سليمةً من الخطأ واللَّحنِ، فما شأنُ اللغويِّ بعد ذلك بالسنِّ، أو بالعَقْلِ أو بالجنسِ؟

ولكن، هل معنى هذا أن اللغويين القدماءَ كانوا يجمعون اللغة هكذا حَطَبَ ليلٍ، دون أدنى بصرٍ أو تمحيص؟ ولو كانوا كذلك فهل يستحقون أن يُسَمَّوا لغويين؟

ذلك ما لم يجد الأستاذ الكبير بُدّاً من الإقرار به، حيث قال:

«ولكنهم ـ والحقُّ يُقال ـ شَعَرُوا بوجود مستويات مختلفة في اللغة، فتحدثوا عن الفصيح والأفصح، والأقلِّ فصاحة، والرَّدِيء والمذموم، والشاذ والحوشي والغريب والنادر.

وكانت المعايير التي آستندوا إليها في ذلك غامضة، فكثيراً ما تقابلنا في المعاجم عباراتٌ مثل: «وهي اللغة العليا» بلا علة واضحة لهذا الحكم»[22].

ولم تكن المعايير التي آعتمدها اللغويون القدماء في تصنيفهم لمستويات اللغةِ، غامضةً، أو بغير علة واضحة، وإنما مقياسهم في كل ذلك ـ كما أشار إليه أستاذنا الكبيرُ نفسُه في أثناء حديثه عن تقسيماتهم للغة[23] ـ لغة القرآن الكريم، والحديث الشريف، ثم الأفصح فالأفصح.

السليقة والتَعَلّم:

جاءت الإشارة إلى العلاقة بين السليقة والتَّعَلُّمِ في «الكتاب» لسيبويه ـ رحمه الله ـ حيث قال:

---

(22) فصول في فقه اللغة ص96 ـ 97.

(23) انظر السابق ص97.

«وحدَّثنا يونس أنه سمع من العرب من يقول: «عَلَيْكَنِي» من غير **تلقين**، ومنهم مَن لا يستعمل «ني» و«نا» في ذا الموضع اُستغناءً بـ«عليك بي» و«عليك بنا» عن «ني» و«نا» و«إياي» و«إيانا»»[24].

فقول يونس ـ رحمه الله ـ: «من غير تلقين» تنصيص على أنَّ الرجل تَكَلَّمَ بـ«عليكني» مَكانَ «عليك بي» سليقةً دُون أن يَكون قد عُلِّمَهَا.

وقد نُفِيَ التَّعَلُّمُ عن السليقيّ في كلام اللغويين القدماءِ جميعاً. لأن التَّعَلُّمَ والسليقةَ أمران لا يلتقيان.

وقد مَرَّ بنا كلامُ أبي عبيد ـ فيما نقله الأزهري ـ حيث قال: «فلان» يقرأ بالسليقية أي بطبيعته، **ليس بتَعليم**».

والمقصود من القراءة هاهنا قراءةُ القرآن، في الأحرف التي ورد فيها خلافٌ بين القَرَأةِ ورُويت بأوجه متعددة. إذ القارىء على السليقة ـ وهو من الأعراب ـ لا يلتزم في أداء حروف القرآن بالأوجهِ المروية فيها، وإنما يقرؤُها بحسب طبعه اللغوي، وسليقته.

قال الأزهري في تعليقه على هذا الموضع ـ كما تقدم: «المعنى أن القراءة مأثورة لا يجوز تعدِّيها فإذا قرأ **البدويُّ** بطبعه ولغته، ولم يَتَّبِعْ سُنَّةَ القراءة، قيل: هو يقرأ بالسليقة».

ونقل الجوهري ـ فيما مَرَّ بنا أيضاً ـ: «والسليقةُ الطبيعة. يقال: فلان يَتَكَلَّمُ بالسليقة أي **بطبعه، لا عن تَعَلُّمٍ**...».

فمن خلال هذين النَصَّين يمكن أن نستشف الملاحظات التالية:

أ ـ أنَّ السليقة ـ كما تقدّم ـ طَبْعٌ لغوي مرتبط كل الارتباط بالبداوة. وهو ما يؤكد صلتها ببيئتها المخصوصة خلافاً لبعض المحدثين.

---

(24) الكتاب 2/ 361.

ب ـ أن البدويّ بطبعة أَنْأى عن التَّعَلُّم، وأبعد عن التلقّي، خصوصاً إذا صاحبَ ذلك ٱعتداد بالنفس وٱستصغار لِلْعِلْمِ المدروس أو الدّرَاسةِ.

وإذا بما مَعَهُ من سجيةٍ وسليقةٍ أفضل مما قد يجده في حلقات الدَّرْس.

قال بعضهم:

ولَسْتُ بنحويٍّ يلوك لسانَه ولَكنْ سليقيٌّ أقولُ فأُعْرِبُ

ألا ترى إلى هذا القائل كيف سَخِر من دراسة اللغة، وكيف صوّرَ دارِسَ النحو أو مُدرِّسَه؟

فإذا به كالحيوان يمضغ لسانه مضغاً، يعالج بذلك لغتَه.

فهي صورة ساخرة من تَعَلُّم اللغة تقابلها صورة فاخرة بالسليقة المُعْرِبَة.

«ويُرْوَى أن أعرابياً وقف على حَلَقةِ أبي زيد جَادياً: أي مستميحاً، فظن أبو زيد أنه جاء ليسأل مسألة في النحو:

فقال له أبو زيد: سَلْ يا أعرابي عما بدا لك؟

فقال على البديهة:

لَسْتُ لِلنحوِ جِئتكم لا ولا فيه أَرْغَبُ
أنا مَالي ولامرىءٍ أَبَدَ الدهر يُضربُ
خَلِّ زَيْداً لِشأنِهِ حيث ما شاء يَذهبُ
وٱستمع قولَ عاشقٍ قد شَجَاهُ التَّطَرُّبُ
هَمُّه الدهرَ طِفْلَةٌ فهو فيها يُشَبِّبُ»[25]

فلم يكن هَمُّ الأعرابِ ـ إنْ وُجدوا عَرَضاً في العواصم والحواضر ـ أن يتلقوا العِلْمَ، وبخاصة اللغة، لأنَّ تعلُّمَ اللغة عندهم أمر مستهجَن، لا يليق بأهل البداوة والسليقة.

وهو أمرٌ إذا فاتشته وجدت له وجهة حَقٍّ، إذْ كيف يُتصوّرُ أن يَتَعَلَّمَ أعرابي

(25) أخبار النحويين البصريين (تحقيق الزيني وخفاجي) ص42 ـ 43.

سليقيٌ لغةً هو مُعَلِّمُها؟ وكيف يجلس إلى أبي زيدٍ مثلاً ليأخذ عنه شيئاً من اللغة أو النحو، إذا كان أبو زيد نفسه قد أخذ تلك اللغة عن الأعراب، أهل البداوة والسليقة؟

جـ ـ ولأنَّ السليقة ليست تَعَلُّماً، أَبَى الأعرابُ أن يتلقَّوْا حروف القرآن، كما رُويت؛ ولم يَتَّبعُوا سُنَّة القراءة. والقراءة سُنَّةٌ لا تخالف؛ وإنما قرَؤُوها على سليقتهم وطبعهم اللغوي.

ولستُ مبالغاً إذا قلتُ: إن هذه القطيعة بين السليقة والتَّعلُّم، قد جعلت الأعرابَ، أهلَ السليقة، ينفرون من كلِّ وافد لغوي يخالف ما هُمْ عليه، مهما كان مصدره.

ولَعَلَّه من التيسير على الأمّةِ ـ بادىءَ الأمر ـ، ومِن ملاطفة هذه السجايا اللغوية شيئاً فشيئاً، حتى تلينَ الألسنةُ لِلُغَةِ القرآن الكريم، ثم تستجيب المُهَجُ والقلوبُ لأحكامه وحدوده، أنْ جاءت الرخصة بقراءة القرآن على سبعة أحرف كلها كاف شاف.

ومن هذا الباب جاءنا كثير من القراءات الشاذة، لا لِعلَّةٍ إلا أنها خالفت الرواية مخالفةً مَنْشَؤُها في الغالب، ٱستحالةُ أن يتخلَّى الأعرابُ عن مقتضى سليقتهم.

د ـ وعساك أدركتَ مَعي الآنَ أنَّ التعلُّمَ المنفي في كلام اللغويين عن السليقة، والذي ينفر الأعرابُ منه ـ كما تقدّم ـ إنما هو **التَّعلُّمُ المقصود**.

وهو الذي يكلّفُ طالبَه مداومَةً على حلقات الدَّرْسِ وٱستفادةَ العلمِ المدروس.

أما التعلُّم العفويُّ، كأنْ يستفيد الطفل مما يسمعه أو يراه من والديه وأهل بيئته، فهو من أهَمِّ روافد السليقة اللغوية.

(وللبحث صلة)